**المحاضرة التاسعة : الإلحاد**

الإلحاد هو إنكار وجود الله، والقول بأن الكون وجد بلا خالق، وأن المادة أزلية أبدية، وهي الخالق والمخلوق معا.

وقد وجد في الأقوام السابقين من ينكر البعث والقيامة، ولكن إنكار وجود الله أصلا يكاد يكون بدعة من المذاهب والعقائد مستحدثة.

وعامة ما في اك2لقرآن من جدل مع الكفار والمشركين إنما كان مع من ينكرون البعث والحساب، أو يتصورون الله على غير حقيقته، أو يصفون الله بما لا يليق من الصفات والأفعال، ولم يكن متوجها إلى من ينكر وجود الله أصلا. والدهريون الذين ذكرهم القرآن ينكرون البعث ولكنهم نسبوا إلى الدهر (أي مرور الزمن) الإهلاك ولم ينسبوا إليه الخلق.

وحتى الأقوام الذين لم تبلغهم الرسالات السماوية نجدهم يجنحون إلى نوع من الإيمان بخالق مدبر ضار نافع يتقربون إليه بطقوس من العبادات التي توارثوها، وهذا من أثر الفطرة التي فطر الناس عليها ومن أثر الميثاق الذي أخذه الله من بني آدم حين أشهدهم على أنفسهم فأقروا بالإيمان، فبقي أثر هذه الشهادة في الفطرة كما تبقى الصفات الوراثية كامنة في الصبغيات الحاملة لتلك الصفات.

ومع نداء الفطرة يدرك الإنسان معجزة الخلق في الكون وعظمة اتساعه ودقة حركة أجرامه، وروعة التقدير في كل ما فيه من مقادير، وما يتصل بذلك من مخلوقات كالنبات وحيوان، ودقائق الخلايا والذرات وما يمسك أجزاءها من قوى وطاقات، وفي خلق الإنسان منذ يكون بويضة إلى أن يصير بشرا سويا، متميزا بصفاته الخلقية والخلقية عن سائر بني جنسه، بل عن أقرب المقربين إليه؛ إخوته ووالديه. وفي سر الكلام وتعدد اللغات واللهجات، وفي الموت ودورة الحياة، وتعاقب الأحداث والظواهر، كل ذلك يدفع الإنسان نحو التساؤل والحيرة، ثم يقوده السؤال والحيرة نحو الإيمان بالله الخالق المدبر، أو يقودانه إلى الإيمان بقوى أو كائنات أو موجودات ينسب إليها الخلق والأمر، والنفع والضر.

وخلاصة الأمر أن الفطرة مدفوعة نحو الإيمان والإقرار بوجود إله خالق، سواء عرفت الله كما ينبغي أم انحرفت في إيمانها فأشركت بالله شيئا, أما أن تتنكر لوجود اله أصلا فليس هذا في الفطرة وليس منها.

ولقد عوامل عديدة بالمجتمعات الغربية والشرقية إلى الإلحاد، بدءا بالصراع الذي ظهر بين رجال العلم ورجال الكنيسة، ومرورا بما فتحته الحضارة الحديثة ومنتجاتها من أبواب الشهوات والملذات التي يتبلد بها الحس وتنطمس بها البصيرة، ووصولا إلى إرادة الاستحواذ على التشريع في كل مناحي الحياة، وعدم تصور أي إمكان للإبقاء على بعض التشريع الذي يمت إلى الدين بصلة، وزاد الطين بلة ما انتشر في الشرق والغرب من فتنة الشيوعية التي رفعت شعار (لا إله والحياة مادة)، وعدّت الدين أفيونا للشعوب كما قال زعيمهم.

لقد أدت حماقات رجال الكنيسة وجمودهم مع فسادهم إلى أن عدّ العلم بديلا للدين، وجعل السبب المادي الظاهر بديلا عن السبب الحقيقي الغيبي، ذلك أن الكنيسة كانت تمنع رجال العلم من البحث الحر في الأسباب الظاهرة، وتفرض عليهم الإيمان بأشياء حظ الخرافة فيها أكثر من حظ الدين والغيب، فلما كتبت الغلبة لرجال العلم بهرهم ما توصلوا إليه من العلم بالأسباب الظاهرة، وعدوه منتهى العلم ومبلغ الطموح، وقادهم ذلك من حيث يعلمون أو لا يعلمون إلى أن جعلوا الطبيعة بديلا من الله .

وانتقل هذا الانحراف شيئا فشيئا من طبقة العلماء والفلاسفة والمفكرين إلى طبقات الجماهير التي فتنت بلذائذ الحس وما جلبته منتجات العلم والحضارة من وسائل المتعة وسبل الشهوات.

وفعل اليهود في خضم كل هذا فعلتهم في إشاعة أفكار الإلحاد ونشره عبر الثورات والنظريات والإعلام، فلم يفسدوا العقائد فحسب، بل أفسدوا الفطرة ذاتها، فلم تعد هذه الفطرة تنبض بنوع من الإيمان ولو كان منحرفا في تصور حقيقة الألوهية كما كان شأن كثير من الأمم السابقة، بل صار الإنسان العاجز الضعيف الجهول يتبجح بالاستغناء عن الدين والإيمان بالله، حتى قال جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث): "إن الإنسان قد خضع لله بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله." [معاذ الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا]

هذا مع أن العلماء أنفسهم يجمعون على أن ما كشفه الإنسان من جهله وحيرته يفوق بكثير، بل لا يقارن أصلا بما تهدّى إليه من العلم.

أما عجزه فهو أظهر من أن يبرهن عليه، فهو لم يسيطر على الكون كما كان يحلم ذات يوم، ولم يتوصل إلى ترياق يكسبه الخلود، بل إن ما مدى ما تصل إليه أعمار البشر لم يكد يتغير، وإذا كان الطب قد أتاح للإنسان أن يجد علاجات لكثير من العلل والأدواء، فإن نمط الحياة والتغذية المستحدث قد جلب له من الأمراض والآفات ما رجحت به الكفّة.